جامعة بغداد

كلية التربية للعلوم الانسانية_ ابن رشد

قسم_ علوم القران والتربية الاسلامية

محاضرات مناهج المفسرين

للمرحلة الرابعة/ الدراسة الصباحية

المحاضرة (١)

أستاذ المادة

[redacted]

د. إحسان ياسين حسن

محاور المحاضرة الاولى

مدخل الى دراسة مناهج المفسرين

اولا: تعريف مصطلح مناهج المفسرين:

يمكن تعريفه بوصفين: احدهما تعريفه بوصفه مركبا اضافيا، والثاني: تعريفه بوصفه مصطلحاً ومفهوما على انه اتصال مخصوص.

اولا: هو مركب اضافي مكون من مضاف ومضاف اليه، وتقديره: هذه مناهج المفسرين.

- **المنهج في اللغة:** هو الطريق الموصل الى غاية من الغايات سواء اكان هذا الطريق مكاناً ام وسيلة لتحقيق فكرة معينة او هدف معين، والمنهاج : هو الطريق الواضح.
- **اما المنهج اصطلاحاً:** هو الخطة المرسومة المحددة للدراسة ولها قواعد واسس ومنطلقات وطرائق واساليب وتطبيقات

وينطبق هذا على كل دراسة علمية منهجية اسلامية او غير اسلامية تقول: مناهج الدراسات الاسلامية ومناهج المفسرين ومناهج التربية...

التفسير في اللغة: مأخوذ من الفسر بمعنى الابانة والكشف.

- **اما اصطلاحاً:** هو علم يعرف به كتاب الله تعالى المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه واله وبيان معانيه واستخراج احكامه وحكمه.

ثانيا: بوصفه مفهوما ومصطلح هو الخطط العلمية التي يتبعها المفسرون في تفسيرهم للقران الكريم ولها قواعد واسس منهجية مرسومة ولها طرق واساليب وتطبيقات ظهرت في تفاسيرهم.

يمكننا القول هي الضوابط التي اتبعها المفسر في كشف معاني النص القرآني، وبيان المراد من كلماته.

ثانياً: الفرق بين المنهج والطريقة:

لابد ان نفرق بين المنهج والطريقة عند المفسرين وغيرهم

المنهج: هو الخطة المرسومة المحددة الدقيقة التي تتمثل في القواعد والاسس والمنطلقات التي انطلق منها في فهمه للقران الكريم والتزم بها في تفسيره.

اما الطريقة: هي الاسلوب الذي سلكه المفسر اثناء تفسيره لكتاب الله تعالى والطريق الي عرض تفسير كتاب الله تعالى من خلالها.

وبعبارة اخرى الطريقة هي تطبيق المفسر للقواعد والاسس المنهجية التي كانت منهجه في فهم القران الكريم.

مثال توضيحي: من قواعد منهج الامام الطبري ذكر الاقوال المأثورة للصحابة والتابعين في التفسير، ووقف عليها بأسانيدها المختلفة والمكررة. هذا ضمن منهجه اما طريقته فتعنى بتطبيق الطبري للقاعدة السابقة وذكر امثله ونماذج لها من تفسيره اذ يبين الباحث كيف طبق الطبري هذه القاعدة لمنهجه على اسلوبه في عرض الروايات المختلفة المسندة.

المبحث الأول

مناهج المفسرين

تعريفها وأهمية معرفتها

تعريف مصطلح (مناهج المفسرين):

(مناهج المفسرين) مركَّب إضافي، مكوَّن من مضاف ومضاف إليه، وهي خبرٌ لمبتدأ محذوف، تقديره: «هذه مناهجُ المفسرين».

و(مناهج) جمع (مَنْهَج). فما معنى هذه الكلمة؟

(مَنْهَج) مشتقةٌ من الكلمة الثلاثية (نَهْجٌ).

قال ابن فارس في (مقاييس اللغة) عنها: «النَّهْجُ: الطريق. ونَهَجَ لي الأمْرَ: أوضَحَه. وهو مستقيمُ المنهاج. والمَنْهَجُ: الطريق. والجمع: المناهج»[(١)].

وقال الراغب الأصفهاني في المفردات: «النَّهْجُ: الطريق الواضح. ونَهَجَ الأمْرُ وأنهجَ: وَضَحَ. ومنهجُ الطريق ومنهاجُه. قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]»[(٢)].

وورد في (المعجم الوسيط) عن الكلمة: «نَهَجَ الطريقُ، يَنْهَجُ، نَهْجاً ونهوجاً: وَضَحَ واستبان. ونهجَ الإنسانُ الطريقَ: سلكه وبيَّنه.. وأنهجَ الطريقُ: وَضَحَ واستبَان.

والمنهاج: الطريق الواضح. قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس، ص١٠٠٠.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن للراغب، ص٨٢٥.

(٤)

والمنهاج والمنهج: الخُطَّة المرسومة. ومنه: مِنهاج الدراسة، ومِنهاج التعليم، وجمع المنهج والمِنهاج: مناهج»[1].

وخلاصةُ الأقوال السابقة أن مادةَ (نَهْج) تقوم على: توضيحِ الأمرِ وبيانِه، وتُستعمَلُ في الطريق الذي يكون واضحاً مستقيماً معروفاً بيِّناً، بحيث تمكنُ معرفتُه وتمييزه، ويَسهلُ سلوكُه والسيرُ فيه.

أما المنهج والمِنهاج فهو الطريقُ الواضحُ البيِّنُ المستقيم.

ويُستعملُ (المنهج) في استعمالين:

الأول: استعمالٌ ماديٌّ حسّيّ، حيث يُطلَقُ على الطريق الواضحة المستقيمة، التي يعرفُها الإنسان، ويتمكّنُ من سلوكها والسيرِ عليها بقدميه.

الثاني: استعمالٌ معنوي نظري. حيث يطلَقُ على الخُطة العلمية الموضوعية المحددة المرسومة الدقيقة، التي يتعرَّفُ عليها الباحث أو الدارس، ويقفُ على قواعدِها وأُسسها، ويلتزمُ بها، لتكونَ دراستُه علميةً منهجيةً موضوعيةً صحيحةً.

والاستعمالان الماديُّ والمعنويُّ لمصطلح (المنهج) متكاملان متوافقان، وليسا متناقضين، وهما يقومان على الوضوح والبيان.

ويهمُّنا في دراستنا الاستعمالُ الثاني لمصطلح (المنهج)، وهو الاستعمالُ النظريُّ المعنوي.

إذن: (منهجُ الدراسة) هو: الخُطَّةُ المرسومة المحدَّدة للدراسة، هذه الخطةُ لها قواعد وأسس ومنطلقات، ولها طرقٌ وأساليب وتطبيقات.

ينطبقُ هذا على كلِّ دراسةٍ علميةٍ منهجية، إسلامية أو غير إسلامية، تقول: مناهجُ الدراسات الإسلامية، ومناهج التعليم العام، ومناهج التفسير، ومناهج الحديث والفقه، وغير ذلك.

---

(١) المعجم الوسيط، ص٩٥٧.

فمعنى (مناهج المفسرين) هو: الخُطَطُ العلمية الموضوعية المحددة التي التزم بها المفسّرون في تفاسيرهم للقرآن الكريم. هذه الخطط الموضوعية لها قواعد وأسس منهجية مرسومة، ولها طرق وأساليب وتطبيقات ظهرت في تفاسيرهم.

(منهج المفسر): هو الخُطّةُ المحدّدةُ التي وضعها المفسر عند تفسيره للقرآن الكريم، والتي انعكستْ على تفسيره الذي كتبه، وصارتْ واضحةً فيه. هذه الخُطةُ تقومُ على قواعدَ وأسس، وتتجلّى في أساليب وتطبيقات.

بين المنهج والطريقة:

معظمُ الباحثين والدارسين لم يفرّقوا بين المنهجِ والطريقة في أبحاثهم ودراساتهم، فهم يخلطونَ بينهما، ويجعلونَهما كلمتيْن مترادفتيْن بمعنى واحد، فالمنهجُ عندهم هو الطريقة، والطريقةُ هي المنهج.

وهذا الخلطُ والترادفُ بين المنهج والطريقة عندهم جعل دراساتهم غيرَ واضحة ولا محدّدة، ولاتُعَرّفُ على الأشخاص الذين تتحدّثُ عنهم، ولا على المناهج التي تعرضُها.

إنني أرى وجوبَ التفريق بين المنهج والطريقة، في الدراسات الإسلامية أو الأدبية أو العلمية أو الفكرية أو غيرها.

وإذا كان هذا التفريقُ ضرورياً في مختلف الدراسات النظرية، فإنه أكثرُ ضرورةً في الدراساتِ الإسلامية التي تتحدث عن علمائنا ومفكرينا في مختلف ميادين العلوم الإسلامية، من تفسيرٍ وحديثٍ وفقه وعقيدة.

لابدَّ أنْ نفرّقَ بين المنهجِ والطريقة عند: المفسرين، والمحدثين، والفقهاء، وعلماء العقيدة، وعلماء النحو، والمؤرخين، وغيرهم.

المنهج هو: الخُطّةُ المرسومةُ المحددةُ الدقيقة، التي تتمثّلُ في القواعد والأسس والمنطلقات، التي تعرّفَ عليها المفسر، والتي انطلق منها في فهمه

للقرآن الكريم، والتي التزمَ بها في تفسيرِه له، هذه القواعدُ والأسسُ كانت ضوابط له ولتفسيرِه، حَكَمَتْهُ وهو يتعاملُ مع كتاب الله ويفهمه ويفسّره، فلم يخالفْها، ولم يخرجْ عنها.

أمَّا الطريقةُ: فهي الأسلوبُ الذي سلكه المفسِّرُ أثناء تفسيرِه لكتاب الله، والطريقُ التي عرضَ تفسيرَ كتابِ الله من خلالها.

وبعبارةٍ أُخرى: الطريقةُ هي تطبيقُ المفسِّرِ للقواعدِ والأسس المنهجية التي كانت منهجَه في فهم القرآن. تطبيقُ تلك القواعد في مختلفِ ألوان علوم التفسير: كتفسيرِ آيات العقيدة، وآياتِ الأحكام، وآيات الأمثال، وآيات القصص، وغير ذلك.

وبالمثال يتضح المقال:

من قواعدِ منهجِ الإمام الطبري في التفسير: ذكْرُ الأقوالِ المأثورة للصحابة والتابعين في التفسير، التي وصلَتْ إليه ووقفَ عليها، بأسانيدها المختلفة المكرَّرة.

هذا كلامٌ ضمنَ الحديثِ عن (منهج الإمام الطبري في التفسير)، ويُعرضُ ضمنَ التعريف على قواعد منهجه فيه.

أما (طريقةُ الطبري في التفسير) فتعنى بتطبيق الطبري للقاعدة السابقة، وذكْرِ أمثلةٍ ونماذجَ لها من تفسيره، إذ يبينُ الباحثُ كيف طبقَ الطبريُّ هذه القاعدةَ المنهجيةَ على أسلوبه في عرض الروايات المختلفة المسندة.

ومن قواعدِ (منهج الإمامِ الزمخشري في التفسير): الانتصارُ لمذهبِ المعتزلة في تفسيرِ آيات العقيدة؛ والدفاعُ عنهم، وذمُّ الأقوالِ الأخرى المخالفةِ لهم.

وعند حديثِ الباحث عن (طريقة الزمخشري في التفسير) فإنه يذكُرُ أمثلةً وتطبيقات من تفسيرِ الزمخشري، تظهرُ القاعدةُ المنهجيةُ السابقة واضحةً من خلالها: تفسيرُ الزمخشري لآياتِ رؤية الله في الآخرة، وتفسيرُه لآياتِ الوعد

والوعيد، وآياتِ الهدى والضلال . . .

وحتى يتضحَ الفرق بين المنهجِ والطريقة نتذكّرُ هذا (المثال الهندسي)!.

عندما يريدُ الإنسانُ أن يبنيَ عمارةً حديثةً جيدة، فإنه يذهبُ إلى مهندسٍ خبير، ويشرحُ له تصوُّرَه للعمارة التي يريدُها، ويطلبُ منه أن يرسمَ له (مخطَّطاً هندسياً) للعمارة. فيقومُ المهندسُ برسمِ ذلك المخطط على الورق، ويحدِّدُ فيه كلَّ شيء يتعلقُ بالعمارة، من حيثُ مساحتها وشققها وغرفها ومنافعها ومرافقها.

ثم يأخذُ صاحبُ العمارة هذا (المخطط المتقن) إلى مهندسٍ آخر، لينفِّذه له على أرضِ الواقع، فيقول له: أريد منك أن تبنيَ لي عمارةً حديثةً وفقَ هذا المخطط، بحيث لا تخالفُه ولا تخرجُ عنه!

فيتولَّى (المهندس المنفِّذُ) بناءَ العمارة على أساسِ المخطَّطِ الدقيقِ الموجودِ بين يديه!

منهجُ المفسِّر في تفسيره أشبهُ ما يكون بالمخطط الهندسيِّ الدقيقِ على الورق. وطريقةُ المفسرِ في تفسيره أشبهُ ما تكون بالتزامِ المهندس المنفِّذِ بالمخطَطِ الهندسي الذي سُلِّمَ له.

وبهذا نعرفُ الفرقَ بين قواعدِ ومنطلقات المنهج، وبين طريقةِ تطبيقها في التفسير. وبهذا نعرفُ أنَّ (المنهجَ) و(الطريقةَ) ليسا مترادفين!

كيفية معرفة المنهج والطريقة:

بعدَ تعريفِنا لمنهجِ المفسِّر، وتفريقِنا بين منهجه وطريقتِه في التفسير، نُشيرُ إلى كيفيةِ معرفةِ الدارس لمنهجِ المفسر، واستخراجِه لقواعدِه وأسسه.

بعضُ المفسرين القدماء والمعاصرين يُريحون الباحثَ الراغبَ في التعرفِ على مناهجهم التفسيرية، فيذكُرون له ذلك، وبعضُهم يُتعبونه وهو يبحثُ في صفحاتِ التفسيرِ لاستخراج تلك القواعد.

وأعتقدُ أنَّ الأمرَ ناتجٌ عن مدى وضوحِ الخُطّةِ المنهجية عند المفسّر

(٨)

أو عدمه، فمن كانت خُطتُه التفسيريةُ واضحة، ومَنْ كان يعرفُ ماذا يريدُ أنْ يفعلَ في تفسيره بالضبط، فإنه يذكرُ هذا ويبيّنُه، ومَنْ كان الأمرُ ملتبساً عنده (غائماً) غير واضح أمامه، فإنه لا يذكُره ولا يبينه.

إنَّ الوضوحَ في العرضِ والصياغةِ مبنيٌّ على الوضوحِ العقليِّ والتصوريِّ والنظريّ، وكلما كان الأمْرُ واضحاً في تصورِ وذهنِ وإدراكِ المفكِّرِ أو المفسِّرِ أو الكاتب، كانت كتابتُه واضحةً محدَّدة، متسلسلةً مترابطة، وإذا كان الموضوع (مُشَوَّشاً) في ذهنِ صاحبه، كانت كتابتُه مشوَّشَةً مضطربةً متداخلةً غير متناسقة!!

وحتى يتعرَّفَ الدارسُ على قواعد منهجِ المفسّر في تفسيره لابدَّ أنْ يقومَ بما يلي:

١ ـ الدراسةُ الفاحصةُ لمقدمةِ المفسر في تفسيره، واستخراجُ القواعدِ المنهجيةِ التي أشارَ لها المفسّر فيها، وفهمُ تلك القواعدِ والأسس.

٢ ـ الدراسةُ الفاحصةُ للتفسير، للوقوفِ على توضيحِ القواعدِ التي أشار لها المفسر في مقدمته، والوقوف على قواعدَ أخرى ذكَرَها المفسرُ أثناءَ التفسير.

بعضُ المفسرين ـ أو معظمُهم بتعبيرٍ أدقّ ـ لا يكتفون بالحديثِ عن منهجهم في التفسير في مقدمته، وإنما يُشيرون إلى قواعدَ أُخرى أثناء التفسير، فأثناءَ تفسيرِ أحدِهم لسورةٍ ـ أو آياتٍ منها ـ يخطرُ له أنْ يذكرَها قاعدةً من قواعدِ فهمه للقرآن، أو واحداً من أُسس تعامله معه، ويكونُ هذا في جملةٍ أو جُمَلٍ قصيرة.

وعلى الدارسِ المنتبهِ أنْ يحسنَ ملاحظةَ والتقاط هذه الجُمَلِ القصيرة، التي تكونُ معالمَ هاديةً كاشفةً تُعَرِّفُ على منهجِ المفسر في فهم القرآن وتفسيره!

وإذا لم ينتبه لها ولم يلاحظها، فسيبقى جانبٌ كبيرٌ من فهمه للقرآن خافياً على الباحث!

أما معرفةُ (طريقةِ) المفسر في تفسيره فهي أسهلُ من معرفةِ قواعد منهجه. فعلى الدارسِ أنْ يتعرَّف على طريقةِ المفسر في تفسير السور، وتقسيم آياتِها إلى وحدات ودروس، وأنْ يتعرَّفَ على طريقتِه في تفسيرِ مختلفِ موضوعات (علوم

(٩)

التفسير)، كآياتِ الأحكام، وآياتِ العقيدة، وآيات القصص، ليتعرَّفَ على موقفِ المفسّرِ من مختلفِ موضوعاتِ التفسير، التي اختلف فيها المفسّرون والعلماء، ورجالُ الفرق الإسلامية.

على الدارسِ أنْ (يُسَجِّلَ) القواعدَ المنهجية التي وقف عليها، وأن يسجّلَ طريقةَ المفسر في تطبيق تلك القواعد، وفهمِ آياتِ وموضوعاتِ القرآن على أساسها!!

أهمية معرفة مناهج المفسرين:

نعتقدُ أنَّ (معرفةَ مناهج المفسرين) ضروريةٌ للدارسين المتخصصين في الدراسات الإسلامية، وضروريةٌ للراغبين في العلم، والحريصين على الثقافة الإسلامية.

إنَّ مدارسَ التفسير عديدة، وتياراتِه واتجاهاتِه متنوّعة، منذُ عهدِ الصحابةِ الكرام، وحتى العصر الحاضر، حيث ظهرَ مئاتُ المفسرين، وكُتبت مئاتُ التفاسير، واختلفتْ مناهجُ المفسرين في فهم القرآن وتفسيره.

وأشارَ الإمامُ الزمخشريُّ إلى كثرةِ التفاسير، وإلى موقعِ تفسيره (الكشاف) بينها، فقال:

إنَّ التفاسيرَ في الدُّنيا بلا عَدَدٍ ... وَلَيْسَ فيها لَعَمْري مِثْلُ كَشَّافي
إنْ كُنْتَ تَبْغي الهُدى فَالْزَمْ قِرَاءَتَهُ ... فَالجَهْلُ كالدَّاءِ والكَشَّافُ كالشَّافي

وإذا كانَ هذا حتى منتصفِ القرنِ السادس، فماذا نقولُ في التفاسيرِ الأخرى التي أُضيفَتْ خلالَ أكثرَ من ثمانيةِ قرون، أعقبتْ كلامَ الزمخشريِّ السابق؟

وإذا كانت التفاسيرُ بهذه الكثرةِ وهذا التنوُّعِ والتشعُّب، فلابدَّ من معرفةِ اتجاهاتِها ومدارسِها، والوقوفِ على مناهجِ أصحابها، وحُسْنِ ترتيبها وتصنيفها.

من الواجبِ على الدارس في (التفسير والمفسرين) معرفةُ المفسرين وتفاسيرِهم ومناهجِهم وطرائقهم معرفةً مجملة: المفسّرِ ونسبِه، وعصرِه وعلمِه،

(١٠)

والتزامِه ومنهجيتِه، ونتاجِه وجهودِه، وهدفِه من التفسير، ومنهجِه فيه، وتقويمِ ذلك التفسير، ومعرفةِ ما فيه من خيرٍ وفائدة، وجِدَّةٍ وإضافة، ومعرفةِ ما عليه من مآخذ.

غيرُ مقبولٍ من دارسٍ في علم (التفسير والمفسرين) أنْ لا يعرفَ عن الإمام (محمد بن جرير بن يزيد الطبري) ـ مثلاً ـ إلاَّ أنه (الطبري) فقط. وأنْ لا يعرفَ تفسيرَه: (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) إلاَّ أنَّه (تفسير الطبري) فقط! وهكذا باقي الأئمةِ المفسرين وتفاسيرِهم!.

إنَّ (مناهج المفسرين) تقدمُ للدارسِ القواعدَ والآدابَ والضوابطَ والتوجيهات التي لابدَّ منها في عالم التفسير، كما تقدمُ له الأسسَ والأصولَ المنهجيةَ الموضوعيةَ التي لابدَّ من الانطلاقِ منها في عالم التفسير، وهي تُحَدِّثُ الدارسَ عن نشأةِ علم التفسير، ومدارسِ التفسير واتجاهاتِه في التاريخ الإسلامي، وتُعَرِّفُه على أشهرِ التفاسير وأئمةِ المفسّرين، وتحدِّدُ له مناهجَهم وطرائقَهم في التفسير.

وبذلك يكونُ الدارس (مُلِمّاً) إلماماً موجزاً بحركةِ التفسير ورجالها وتراثها ومناهجها، ويكون هذا الإلمامُ حافزاً له على الدراسةِ المفصَّلةِ للتفاسير الأساسية التي أُعجبَ بها، ووجدها أكثرَ دقةً وعلميةً ومنهجيةً!!

* * *

التفسير

التعريف بالتفسير

التفسير من فَسَرَ، بمعنى أبان و كشف.

قال الراغب: الفَسْر و السَفْر متقاربا المعنى كتقارب لفظيهما، لكن جعل الفَسْر لإظهار المعنى المعقول، و السَفْر لإبراز الأعيان للأبصار. يقال: سَفَرَت المرأة عن وجهها و أسفرت، و أسفر الصبح، و قال تعالى: ﴿وَ لا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلّا جِئْناكَ بِالحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفسيراً﴾[1] أي بياناً و تفصيلاً.[2]

و اصطلحوا على أنّ التفسير، هو: إزاحة الإبهام عن اللفظ المشكل، أي المشكل في إفادة المعنى المقصود.

و كانت صياغته من باب «التفعيل» نظراً للمبالغة في محاولة استنباط المعنى، كما في كشَفَ و اكتشف، فإنّ في الثاني إفادة زيادة المحاولة في الكشف، فكان أخصّ من المجرّد؛ و ذلك بناءً على أنّ زيادة المباني تدلّ على زيادة المعاني.

فالتفسير ليس مجرّد كشف القناع عن اللفظ المشكل، بل هو محاولة إزالة الخفاء في دلالة الكلام، فلا بدّ أن يكون هناك إبهام في وجه اللفظ؛ بحيث ستر وجه المعنى، و يحتاج

---

١. الفرقان (٢٥): ٣٣.

٢. ذكر ذلك في مقدّمته **للتفسير**، ص٤٧.

إلى محاولة واجتهاد بالغ حتّى يزول الخفاء ويرتفع الإشكال.

وهذا هو الفارق بين التفسير والترجمة؛ لأنّها حيث كان الجهل باللغة وعدم معرفة الوضع الذي يرتفع بمراجعة كتب اللغة المعروفة، وليس في ذلك كثير جهد وعناء.

الحاجة إلى التفسير

ما وجه الحاجة إلى تفسير القرآن، وقد أنزله الله نوراً وهدًى وبصائر للناس وتبياناً لكلّ شيء[١]، كما أنّه جاء ليكون بنفسه أحسن تفسيراً[٢]، فهل هناك حاجة إلى تفسير؟

نعم، أنزل الله الكتاب ليكون بذاته بياناً للناس عامّة وتفصيلاً لكلّ شيء[٣]، غير أنّ بواعث الإبهام أمر عارض، ولعلّه كان من طبيعة البيان القرآنيّ. جاء تشريعاً للأصول والمباني، وأجمل في البيان إيكالاً إلى تبيين النبيّ ﷺ ليبيّن للناس تفاصيل ما نُزّل إليهم[٤].

قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ رسول الله ﷺ نزلت عليه الصلاة ولم يُسمّ لهم ثلاثاً ولا أربعاً، حتّى كان رسول الله ﷺ هو الذي فسّر لهم ذلك»[٥].

هذا جانب من الإجمال (الإبهام) الحاصل في وجه لفيف من آيات الأحكام، ولعلّه طبيعيّ في مثل البيان القرآنيّ، كما نبّهنا.

* * *

---

١. قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النّاسُ قَد جاءَكُم بُرهانٌ مِن رَبِّكُم وَأَنزَلنا إِلَيكُم نوراً مُبيناً﴾ النساء (٤): ١٧٤؛ ﴿هذا بَيانٌ لِلنّاسِ وَهُدىً وَمَوعِظَةٌ لِلمُتَّقينَ﴾ آل عمران (٣): ١٣٨؛ ﴿هذا بَصائِرُ لِلنّاسِ وَهُدىً وَرَحمَةٌ لِقَومٍ يوقِنونَ﴾ الجاثية (٤٥): ٢٠؛ ﴿وَنَزَّلنا عَلَيكَ الكِتابَ تِبياناً لِكُلِّ شَيءٍ﴾ النحل (١٦): ٨٩.

٢. ﴿وَلا يَأتونَكَ بِمَثَلٍ إِلّا جِئناكَ بِالحَقِّ وَأَحسَنَ تَفسيراً﴾ الفرقان (٢٥): ٣٣. أي أحسن بياناً وتوضيحاً.

٣. ﴿وَهُوَ الَّذي أَنزَلَ إِلَيكُمُ الكِتابَ مُفَصَّلاً﴾ الأنعام (٦): ١١٤؛ ﴿وَتَفصيلَ الكِتابِ لا رَيبَ فيهِ﴾ يونس (١٠): ٣٧.

٤. ﴿وَأَنزَلنا إِلَيكَ الذِّكرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيهِم وَلَعَلَّهُم يَتَفَكَّرونَ﴾ النحل (١٦): ٤٤.

٥. الكافي للكليني، ج ١، ص ٢٨٦.

و جانب آخر أهمّ: احتواء القرآن على معان دقيقة و مفاهيم رقيقة، تنبؤك عن كمون الخليقة وأسرار الوجود، هي تعاليم و حِكَم راقية جاء بها القرآن، وكانت فوق مستوى البشريّة آنذاك؛ ليقوم النبيّ ﷺ بتبيينها و شرح تفاصيلها، وكذا صحابته العلماء ﴿هُوَ الَّذي بَعَثَ فِي الأُمِّيّينَ رَسولاً مِنهُم يَتلو عَلَيهِم آياتِهِ وَيُزَكّيهِم وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ وَالحِكمَةَ وَإِن كانُوا مِن قَبلُ لَفي ضَلالٍ مُبينٍ﴾[١].

و ذلك في مثل صفاته تعالى ـ الجلال و الجمال ـ، و معرفة وجود الإنسان، و سرّ خلقته، و مقدار تصرّفه في الحياة، و الهدف من الخلق و الإيجاد، و مسائل المبدإ و المعاد.

كلّ ذلك جاء في القرآن في إشارات عابرة، و في ألفاظ و تعابير كنائيّة، و استعارة و مجاز؛ فكان حلّها و الكشف عن معانيها بحاجة إلى فقه و دراسة و تدبّر، و إمعان نظر و تفكير.

و أيضاً فإنّ في القرآن إلماعات إلى حوادث غابرة و أمم خالية، جاء ذكرها لأجل العظة و الاعتبار، إلى جنب عادات جاهليّة كانت معاصرة، عارضها و شدّد النكير عليها، في مثل مسألة النسيء، و أنّها زيادة في الكفر[٢]، و نهيه عن دخول البيوت من ظهورها[٣]، و نحو ذلك، فاستنكرها عليهم و عنّفهم عليها حتّى أبادها، و قطعها من جذورها. فلم يبق منها سوى إشارات عابرة، لولا الوقوف عليها، لما أمكن فهم معاني تلكم الآيات.

كما تعرّض لأمور أتى عليها من وجه كلّيّها و أهمل جانب تعيينها، فجاءت مجملة هي بحاجة إلى شرح و بيان، في مثل الدابّة التي تخرج من الأرض فتكلّم الناس[٤]، و البرهان الذي عصم يوسف من ارتكاب الإثم[٥].

هذا مضافاً إلى غرائب اللغة التي جاءت في القرآن على أفصحها و أبلغها، و إن كان صعباً فهمها على عامّة الناس، لولا الشرح و البيان.

---

١. الجمعة (٦٢): ٢.
٢. التوبة (٩): ٣٧.
٣. البقرة (٢): ١٨٩.
٤. النمل (٢٧): ٨٢.
٥. يوسف (١٢): ٢٤.

قال الراغب: فالتفسير إمّا أن يستعمل في غريب الألفاظ، نحو «البَحيرة» و«السائبة» و«الوصيلة» أو في وجيز كلام يبيّن و يشرح، كقوله: ﴿وَ أَقيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ﴾[١] أو في كلام مضمّن بقصّة لا يمكن تصوّره إلّا بمعرفتها، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسيءُ زِيادَةٌ فِي الكُفرِ﴾[٢] و قوله: ﴿وَ لَيسَ البِرُّ بِأَن تَأتُوا البُيوتَ مِن ظُهورِها﴾[٣].

* * *

قال الإمام بدر الدين الزركشي: التفسير: علم يعرف به فهم كتاب الله، و بيان معانيه، و استخراج أحكامه و حِكَمه، و أنّ الله إنّما خاطب خلقه بما يفهمونه؛ و لذلك أرسل كلّ رسول بلسان قومه، و أنزل كتابه على لغتهم.

و القرآن إنّما أنزل بلسان عربيّ مبين في زمن أفصح العرب، و كانوا يعلمون ظواهره و أحكامه، و إنّما احتيج إلى التفسير، لما فيه من دقائق باطنة لا تظهر إلّا بعد البحث و النظر، مع سؤال النبيّ ﷺ عنها في الأكثر، كسؤالهم لمّا نزل: ﴿وَ لَم يَلبِسوا إِيمانَهُم بِظُلمٍ﴾[٤]، فقالوا: أيّنا لم يظلم نفسه! ففسّره النبيّ ﷺ بالشرك، و استدلّ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّركَ لَظُلمٌ عَظيمٌ﴾[٥]، و كسؤال عائشة عن الحساب اليسير[٦]، فقال: «ذلك العرض، و من نوقش الحساب عُذّب»[٧]، و كقصّة عديّ بن حاتِم في الخيط الذي وضعه تحت رأسه[٨]، و غير ذلك ممّا سألوه عن آحاد منه[٩].

قال: و لم ينقل إلينا عنهم تفسير القرآن و تأويله بجملته، فنحن نحتاج إلى ما كانوا

---

١. المائدة (٥): ١٠٣. قال الراغب: البَحيرة هي الناقة إذا ولدت عشرة أبطن، شقّوا أُذُنها و تركوها، فلا تركب و لا يحمل عليها. و السائبة، إذا ولدت خمسة أبطن، تسيّبت في المرعى، فلا ترد عن حوض و لا كلاء. و الوصيلة، إذا ولدت الشاة توأمين ذكراً و أنثى، فلا يذبح الذكر، و يقال: وصلت أخاها، فيتركونه لأجلها. و الحامي: الفحل إذا ضرب عشرة أبطن، كان يقال: حمي ظهره فلا يركب.

٢. التوبة (٩): ٣٧.

٣. التوبة (٩): ٣٧. راجع: مقدّمته للتفسير ص٤٧-٤٨.

٤. الأنعام (٦): ٨٢.

٥. لقمان (٣١): ١٣.

٦. في قوله تعالى: ﴿فَأَمّا مَن أوتِيَ كِتابَهُ بِيَمينِهِ فَسَوفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسيراً﴾ الانشقاق (٨٤): ٧-٨.

٧. تفسير الطبري، ج ٣٠، ص ٧٤.

٨. المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٠٠.

٩. سوف نذكر نماذج من تفاسير مأثورة عن النبيّ ﷺ عند الكلام عن التفسير في عهد الرسالة.